

## اللغة والنزعة الاعتزالية في تفسير الكشاف

الدكتور: مرتضى آيت الله زاده شيرازى -  
كلية الالهييات، جامعة طهران، ايران -

— ١ —

تشير المصادر الى ان اول من ادخل الى خوارزم بمذهب الاعتزال و نشره  
بها هو محمود بن جرير الضبى الاصفهاني (م ٥٠٧ هـ بمرو)  
و كان الضبى استاذ عصره في اللغة و النحو و في فنون الفضائل وقد تخرج  
على يده جماعة من علماء اللغة والنحو. (١)  
منهم جارالله الزمخشري و كان الضبى كثر الايادي على الزمخشري (٢)  
و مما لا شك فيه انه تأثر بمذهب استاذه في الكلام و اخذ عنه نزعة الاعتزال .  
و كان يجاهر بقوله انا الشيخ المعتزلى من يبرزلى من يبرزلى؟ (٣) و اذا زار احداً  
يقول لمن يستاذن له قل لسيدك : ابو القاسم المعتزلى بالباب (٤).  
و يدعو علماء المعتزلة باهل العدل والتوحيد (٥) و يهاجم خصوصاً

- 
- (١) السيوطى . بغية الوعاة ص ٣٨٧ الطبعه الاولى .
  - (٢) الزمخشري . ديوان . ورقة ٩١ . مخطوطة دارالكتب المصرية .
  - (٣) السيوطى . طبقات المفسرين ص ٤١ ط لايدن .
  - (٤) ياقوت . معجم الادباء ج ١٩ .
  - (٥) الزمخشري . مقدمة تفسير الكشاف .

باعنف القول (١) و من تم نرى ان خصوم المعتزلة يشنون الحملات على الزمخشري و على المعتزلة كلما منحت لهم فرصة من مثل : ابن المنير الا سكندرانى فى تعليقاته على الكشاف و ابوحيان الاندلسى (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ) فى تفسيره "البحر المحجبط"، و القاضى عياض مؤلف كتاب "ازهارالرياض"، (٢) . و ابن مالك النحوى الاندلسى (٦٠٠ - ٦٧٢ هـ). (٣) و غير هؤلاء من العلماء الذين لا يذهبون الى مذهب الاعتزال (٤). و قبل ان نستعرض الموضوع يحسن ان نشير باختصار الى اهم اصول الاعتزال :

وكلنا يعلم ان اصول مذهب الاعتزال هى :

١ - التوحيد : وفسروه تفسيراً خاصاً من حيث الصفات الثبوتية والسلبية فى ذاته وانه لا يرى بالابصار فى الدنيا ولا فى الآخرة (٥).

٢ - القول بالعدل : وقالوا بخلاف ما قالته الاشاعرة . وادعوا ان الحكم الفصيل هو العقل مستقلاً ولا سبيل لحكم الشرع . وان العقل يستقل بحسن الافعال كالصدق و قبح الاخر كالكذب و يحكم بان القبيح محال على الله لانه حكيم و فعل القبيح مناف للحكمة وانه لا يندد اسباب الظلم . فجعل العباد احراراً فى افعالهم . اذ انما منسوية اليهم (٦).

(١) الزمخشري . الكشاف ج ٢ ص ١٣٥ . ج ١ ص ٣١٥ - ٣١٤ ط الحلبي .

(٢) القاضى عياض . ازهارالرياض . ج ٢ ص ٢٨٣ - ٢٩٣ . ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣) المقرئ المغربى . فتح الطيب . ج ٧ ص ٢٥٧ . السيوطى . بغية الوعاة ص ٥٥ .

(٤) احمد بن يحيى المرتضى . المنية والامل فى شرح الملل والنحل ص ١٠٦ . بن الخياط . الانتصار ص ١٢٦ ط اروبا .

(٥) المرتضى . المنية والامل ص ٦ . الجاحظ . الحيوان ج ٤ ص ٣٢ . رسائل الجاحظ ص ١٥ - ٩٧ .

(٦) الزمخشري . الكشاف ج ١ ص ٢٠٧ .

٣ - الوعد والوعيد .

٤ - المنزلة بين المنزلتين .

٥ - الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

هذه اصول خمسة اجمعت عليها المعتزلة واعتنقوها كمبدأ اساسى لمذهبهم .

يقول الشيخ الخياط احدائمة المعتزلة : ليس يستحق احد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالاصول الخمسة . التوحيد . العدل . الوعد والوعيد . المنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاذا كملت هذه الخصال فهو معتزلى (١) .

وقد نوه المرتضى بذكر الاصول التى اجمعت عليه المعتزلة وغير ذلك من المسائل الفرعية كمسألة خلق القرآن من عدسه (٢) .

ويدافع الزمخشري عن اصول الاعتزال - هذه الاصول التى اشرنا اليها - فى كتبه لاسيما فى تفسيره الكشاف و ربيع الابرار . وكان الاعتزال ذا اثر كبير فى تفكيره وآرائه فهو قد الزم نفسه من جهة السير على منحنى المعتزلة العقائدى و هو من جهة اخرى دون اصول الاعتزال بطريقة علمية مدروسة وهادفة فى مؤلفاته لاسيما فى تفسيره القيم .

و الزمخشري لا يألو جهدا فى استخدام اللغة - بمعناها العام - فى نصرة مذهب الاعتزال و من اجل ان يقرر ذلك فهو يحاور ويدور و يتمحل و يتعسف

(١) ابن الخياط . الانتصار للرد على ابن الراوندى ص ١٢٦ تحقيق الدكتور تبيرج ط دارالكتب عام ١٩٢٥ م .

(٢) المرتضى . المنية والامل . ص ١٠٦ احمد امين . ظهر الاسلام ج ٤ . ضحى الاسلام ج ٢ ط

فى استخدام اللغة و النحو و علم البيان و القرآت و غير ذلك لتقرير مذهبه الاعتزالى وقد يتخذ الزمخشرى سوقفا وسطابين آراء المعتزلة وآراء اهل السنة و هذا من النادر(١) .

يحترم المعتزلة العقل احتراماً كبيراً . فهى تخضع لحكمه و تدعن لسلطانه . وتسد عليه فى مجال البحث والاستدلال و تتركز على الحجج المنطقية والبرهان العقلى .

انهم يتحررون من النصوص الجاسدة . مادام فى ذلك مرضاة للعقل . ومن ثم سلكوا طريق التأويل فى تفسير الآيات المتشابهة من القرآن الكريم . وكل ما يخالف عقائدهم من النص القرآنى يحاولون ان يرجعوه الى تأويل يتفق ومشربهم وعقيدتهم الاعتزالية . لقد طبقوا القرآن على عقائدهم بدلا من ان يطبقوا عقائدهم على القرآن . (٢)

ومن اجل ذلك تحرروا من ربة الالفاظ وجعلوا اللغة اصطلاحية لاتوقيفية(٣) واستعملوا العقل مصدرا للثقافة الدينية وميزانا توزن به حقائق الدين والطريقة الاساسية هو سلوك منهج لغوى دقيق ينطبق على التوسع فى اللغة بشتى معانيها واشتقاقاتها . ولقد كان للمعتزلة اثر كبير فى القياس اللغوى . كما يظهر ذلك من قولهم : اللغة اصطلاحية لاتوقيفية وكما يظهر ايضا من تحرر الجاحظ واسناله من المعتزلة كالفراء وابى على الفارسى والرمانى وابن جنى وغيرهم فى تشقيقتهم

(١) الزمخشرى . الكشاف ج ١ ص ٤٩٣ ط الحلبي .

(٢) يكون من نافلة القول اذا قلنا ان جميع النحل والطوائف والفرق الاسلامية تسند فى حقايقها على القرآن و تفند آراء الاخرين بالنصوص القرآنية ؟ !

(٣) راجع الخصائص لابن جنى والمزهر للسيوطى ص ١٦ .

الكلام واستعمالهم للمولد من الالفاظ . بله الاعجمي . وكما يظهر لنا من تتبع آراء الزمخشري والبحوث اللغوية الطريفة التي اودعها كتبه .

ومن اسئلة اعتزاز الزمخشري بالعقل : قوله في تفسير الآية : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا : بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والايقاز من رقدة الغفلة لئلا يقولوا : كنا غافلين . فلولا بعث الينا رسولا . ينبهنا على النظر في ادلة العقل (١) ويعلق ابن المنير الاسكندراني السنن فيقول : هذه من نزعات عقائد المعتزلة الذين يرون ان العقل كاف عندهم في ايجاب المعرفة . بل في جميع الاحكام بناء على قاعدة التحسين والتقيح العقليين واما السنن فلا يتوجه عليه هذا السؤال فان العقل عنده شرط وجوب عموم الاحكام ولا تكليف عنده قبل ورود الشرايع (٢) .

ونرى الزمخشري يقول في تفسير قوله تعالى ”و تفصيل كل شيء“ : يحتاج اليه في الدين لانه القانون الذي يستند اليه السنة والاجماع والقياس بعد ادلة العقل (٣) .

وهكذا نراه يقول : في الآية ”خلق لكم مافي الارض جميعا“ ، واستدل بهذه الآية على ان الاشياء التي يصلح ان ينتفع بها ولم تجر المحظورات في العقل . خلقت في الاصل سباحة مطلقا لكل احد يتناولها (٤) .

و يقول في ترجيح العقل على السنة في تفسير قوله تعالى : وما كنت تدري

(١) الزمخشري . الكشاف . ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) ابن المنير الاسكندراني . تعليقات على الكشاف ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) الزمخشري . الكشاف . ج ٢ ص ١٥٨ ط ١٩٥١ .

(٤) الزمخشري . الكشاف . ج ١ ص ٥٠٨ سورة البقرة .

ما الكتاب ولا الايمان،: والانباء لايجوز عليهم اذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال ان يخطئهم الايمان بالله وتوحيده ويجب ان يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر . . . قلت : الايمان اسم يتناول اشياء بعضها الطريق اليه العقل وبعضها الطريق اليه السمع فحتى به ما الطريق اليه السمع دون العقل وذاك ما كان له به علم حتى كسبه بالوحي(١) .

ويقول في تفسيره لقوله تعالى : ”ربنا اغفرلى ولوالدى“، فان قلت : كيف جازله ان يستغفر لابويه وكانا كافرين ؟ قلت : هو من مجوزات العقل لا يعلم استناع جوازه الا بالتوقيف(٢) .

والزنجشرى فى سبيل دعم اصول مذهب الاعتزال واعتزازه بالعقل . يجوز القياس العقلى فيقول فى تفسير قوله تعالى : ”ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون“، هذا دليل على صحة القياس حيث جهلهم فى ترك القياس للنشأة الاخرى على الاولى(٣) . انه ينتهز الفرص والمناسبات ليستخرج ويستنبط من النصوص القرآنية دليلا وبرهانا جديداً لترجيح العقل واعزازه والمهدف من هذا كله تاويل القرآن واستخدام الآيات فى تاييد مذهب الكلاسي وسن ثم كان من الضرورى ان نعلم كيف حكم الزنجشرى الاصول الاعتزالية فى التفسير القرآنى و كيف طبق الآيات عليها .

(١) الزنجشرى . الكشاف . ج ٢ ص ٣٤٥ سورة الشورى ط الشرقية الآية ٣ . الآية ٥٢ .

(٢) الزنجشرى . الكشاف ج ٢ ص ١٨٣ ط ١٩٥١ .

(٣) الزنجشرى . الكشاف ج ٣ ص ١٩٦ سورة الواقعة .

يتفق المسلمون جميعا على التوحيد واعتنق هذا الاصل جل الفرق الاسلامية ومنهم المعتزلة الا ان هولاء فسروا الوجدانية تفسيراً خاصاً و تعمقوا في تحليله وفلسفته الى اقصى حد . حيث ندهم يفسرون الصفات الثبوتية والسلبية ونفى التجسيم عنه حسب ما وصل اليها اجتهادهم والزخمشري يدافع عن هذه الاصول في آيات القرآن الكريم من تفسيره فاذا ما رأى آية ظاهرها التجسيم شمرعن ساعديه وجمع كل معداته من الثقافات وخاصة علمي المعاني والبيان ليساعده بالحل اللغوي المقنع .

يقول في تفسير قوله تعالى : ” انما يبايعون الله يدانته فوق ايديهم، ” يد رسول الله التي تعلق ايدي المبايعين هي يدانته . والحق منزه عن الجوارح وصفات الاجسام فان عقد الميثاق مع النبي كالعهد مع الله . . وهو يقول ان التاكيد من قبيل التخيل (١) .

كمانراه يقول في تفسيره لقوله تعالى مخاطبا لجهنم . ” هل استلأت وتقول : هل من مزيد، ؟ فان هذا السؤال والجواب من باب التخيل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب واقراه (٢) .

ويقول في آية ” و يبقي وجه ربك،، ان المقصود بالوجه ذات الله من قبيل اطلاق الجزء على الكل ويستشهد بقول مساكين سكة اذيقولون : اين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان (٣) .

(١) الزخمشري . الكشاف ج ٣ ص ١٣٦ سورة النتح .

(٢) الزخمشري . الكشاف . سورة ق الآية ٣ .

(٣) الزخمشري . الكشاف . ج ٣ ص ١٨٩ سورة الرحمن .

وهكذا يستدل بالآيات الكريمة لنفى الجسمية عن الله تعالى و يقول فى الآتية :  
 "قالت اليهوديد الله مغلوله، حيث يجعل الغل بىمنى البخل والبسط بىمنى السخاء  
 دون ان يحتاج الى ان يكون هناك يد . ثم يقول : بان عطاء الملك و منحه لا يحتاج  
 الى يد وبسطها وقبضها ولو اعطى مقطوع اليد عطاء اجزيلا لقالوا : ما ابسطيده  
 بالنوال . ثم يستطرد فيقول من لم ينظر فى علم البيان عى عن تبصر بحجة الصواب  
 فى تاويل هذه الآتية (١) .

وهكذا فى قوله تعالى : "وجاء ربك والملك صفافا، . فهو ينفى الحركة  
 والانتقال عن الله لانهما يجوزان على من كان فى جهة وهذه من مختصات التجسيم  
 ولذلك يجعل هذا لتعبير من باب التمثيل لبيان آيات قدرة الله فيقول : فثلث  
 حاله حال مجيء الملك اذا حضر بنفسه (٢) .

و بعد ان ينفى المستزلة التجسيم . نفواعنه الكينونة ايضا يقول فى تفسير الآتية :  
 ربنا وسعت كل شى رحمة و علما فان قلت : تعالى الله عن الممكن فكيف صح ان  
 يقال وسمع كل شى ؟ قلت : العلم والرحمة هما اللذان وسعا كل شى فى المعنى .  
 والاصل وسع كل شى رحمتك وعلملك و لكن ازيل الكلام عن اصله بأن اسند الفعل  
 الى صاحب الرحمة والعلم . واخرجا منعموين للاغراق فى وصفه بالرحمة والعلم  
 كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شى (٣) .

وعند تفسير قوله تعالى "الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد  
 ربهم ويؤمنون به" يقول : انه فيها اظهارشرف الايمان . . . وفيها فائدة اخرى

(١) الزمخشري . الكشاف . ج ١ ص ٤٧١ سورة المائدة الآتية ٦٤ .

(٢) الزمخشري . الكشاف . سورة الفجر الآتية ٢٢ . ج ٣ .

(٣) الزمخشري . الكشاف . ج ٣ ص ٤٥ سورة غافر الآتية ٧ .



وهي : التنبيه على ان الامر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش ومن حوله شاهدين معاينين . . . وانه منزه عن صفات الاجرام (١) . فيعتب الاسكندراني على ذلك بقوله : نقب الزمخشري بهذا لتكلف عما في قلبه من مرض لكنه طاح بعيدا عن الغرض فقرر ان حملة العرش غير شاهدين (٢) .

يذهب المعتزلة وسنهم الزمخشري الى عدم جواز رؤية الله تعالى وانهم ينفون جواز رؤيته نفيا باتا . فيقول جارالله في تفسير قوله تعالى : "لاندركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير" البصر هو الجوهر اللطيف الذي ركبته الله في حاسة النظره تدرك البصيرات . فالمعنى ان الابصار لا تتعلق به لانه متعال ان يكون مبصرا في ذاته لان الابصار انما تتعلق بما كان في جهة . اصلا اوتابعا كالاكسام والهيئات وهو لللطيف ادراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك (٣) .

وهكذا يفعل جار الله الزمخشري في الآيات المتشابهة يؤول كل آية . تدل في ظاهرها على معنى يتنافى ما يجب في ذات الله . فالتوحيد عند المعتزلة هي : نفى جميع الصفات المادية والهيئية عن الله واثبات ان صفاته عين ذاته لانه لو كان غير هذا لزم ان يكون هناك صفة ووصوف و هذا من خواص المركب والى غير ذلك مما يتبع ذلك من محذورات .

يعتقد المسلمون جميعا بعدل الله ولكن المعتزلة تعمدوا في فهمه وأثاروا حوله مسائل اولها : ان الله يسير بالخلق الى غاية . وان الله يريد خير ما يكون

(١) الزمخشري . الكشاف . ج ٣ ص ٤٥ سورة غافر الآية ٧ .

(٢) ابن منير الاسكندراني - تعليقات على الكشاف نفس المجلد .

(٣) الزمخشري . الكشاف ج ١ ص ٥٢١ سورة الانعام الآية ١٠٣ .

لخلقه . وتفرعت من هذه المسألة نظريتان مشهورتان هما نظرية الصلاح والاصلاح . ونظرية الحسن والقبح العقليين . و حاصل رأى المعتزلة فى النظرية الاولى : ان الله لما كانت اعماله معللة و يقصد منها الى غاية هى نفع العباد فانه يقصد فى افعاله الى صلاح العباد . و من المعتزلة من قال انه يجب على الله ان يعمل ما فيه صلاح لعباده . و منهم من لم يكتف بذلك . بل قال يجب على الله رعاية ما هو الاصلاح . و جمهورهم على انه يراعى ما هو الاصلاح (١) . والزنجشى المعتزلى فى تفسيره يبذل قصارى جهده فى تقرير بيان علل افعال الله وانها صادرة عن حكمة و مصلحة يقول فى تفسير الآية الكريمة : ”قل هو اذن خير لكم“ انه لا يكشف اسراركم ولا يفضحكم ولا يفعل لكم ما يفعل بالمشركين مراعاة لما رأى الله من المصلحة فى الابقاء عليكم (٢) .

ويذهب المعتزلة بمقتضى هذا المبدأ من رعاية الاصلاح الى انه لا يجوز على الله تعالى ان يكون خالفا للمقدسات الموصولة الى العصيان . فى تفسيره للآية الكريمة ”وسمازقتاهم ينفقون“، يذهب الى ان الرزق هو الحلال . لان المعتزلة لا يسمون الحرام رزقا . لانه ليس برزق . وان الله لا يرزق العبد الحرام ولا يجوز ان ينسب اليه ما يوصل العبد الى المعصية . ولا يجوز فعل التبيح على الله لتعاليه عن التبيح . فلنظ الرزق واسنادها الى الله تعالى دليلان على ان المنفق هنا هو الحلال . والزنجشى تنسك فى اثبات نظريته بالاسناد فقط (٣) ويصرح ايضا فى الآيه : ”سما رزقتاهم“ بقوله : من الحلال لان الحرام لا يكون

(١) احمد امين ضحى الاسلام . الجزء الثالث صفحة ٤٥ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٦ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ١٠١ .

رزقا ولا يسند الى الله (١) .

وهكذا ينبه الزمخشري في مواضع عديدة من تفسيره على ان الله يراعى الاصلح . ويوول الآيات التي يناقض ظاهرها ذلك في افعاله . فيقول في الآية ” فأخرج لهم عجلا ، فان قلت : فلم خلق الله العجل من الحلي حتى صارقننة لبني اسرائيل وضلالا ؟ قلت : ليس بأول محنة محن الله بها عباده (٢) . ويقول ايضا في قوله تعالى : ” وما اعجلك عن قومك ، بانهزل عنه انه عزوجل ما وقت افعاله الانظرا الى دواعي الحكمة و علما بالمصالح المتعلقة بكل وقت (٣) . وكذلك يدعم نظرية الصلاح والاصح بقوله تعالى : ” قال انك من المنظرين ، فان قلت لم اجيب الى استنظاره و انما استنظره ليفسد عباده و يغويهم ؟ قلت فلما في ذلك من ابتلاء العباد وفي مخالفته من اعظم الثواب (٤) . ويقول الزمخشري في تفسير الآية الكريمة : ” فيما اغو يتنى ؟ ، : ان الله لم يخلق له الغي حتى يحمل الاغواء على تكليفه بالسجود لانه كان سببا في غيه .

واما المسألة الثانية نظرية الحسن والقبح العقليين فخلاصة رأى المعتزلة فيها هو : ان الحسن والقبح في الاشياء ذاتيان والشرع في تحسينه و تقييحه للاشياء منبه عنها لاشيت لها والعقل من غير بيان الشرع مدرك لها و منتبه اليها ، لا ينشئ لها .

- 
- (١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ١٠١ .  
 (٢) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ١٦٥ .  
 (٣) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٣١٠ .  
 (٤) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٤١ .

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: "وياقوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض، مفسدين"، فان قلت: وصف النهي عن النقصان أمر بالايفاء. فما فائدة قوله "اوفوا"، قلت: نهوا اولاً عن عين التبجح الذي كانوا عاينيه من نقص المكيال والميزان لان في التصريح بالتبجح نوعياً على النهي و تعبيراً له. ثم ورد الامر بالايفاء الذي هو حسن في القول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه (١). ونظرية الحسن والقبح المقلبين أساسها أن الامور الحسنة التي يفعلها المكلفون لا يحتاج أن يحسنها ويحبذها المشروع وهو ليس بامر توقيفي بل هو يدرك بالفطرة والعقل كحسن الاحسان وحسن الصدق. وقبح الكذب لا يحتاج ان يتبع من ناحية الشرع لانه في حد ذاته و بنفسه قبيح و حسن سواء قال الشرع بذلك ام لم يقل: وهكذا تفرع من مسألة العدالة أن الله لا يريد الشر ولا يأمر به (٢) وأنه لا يشاء الشرك والمعاصي. والمسألة الثالثة التي لها أهمية كلاسية من مسائل اصول العدل، موضوع حرية الارادة او الجبر والاختيار. يقول الزمخشري في تفسير الآية الكريمة "فألهمها فجورها وتقواها"، معنى الهام الفجور والتقوى افعالها واعمالها أن أحد هما حسن والاخر قبيح و تسكينه من اختيار ساشاه (٣).

ونرى الزمخشري يسوق الادلة التي يستقيها من ظواهر الآيات لتقرير مذهب الاختيار فيقول في الآية "لعلمك تتقون"،: لا يجوز ان يحمل على رجاء الله تقواهم لان الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة و حمله على ان يخلقهم راجح

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٥٥ .

(٣) سورة البقرة آية ٢١ - سورة الملك آية ٢ - سورة النحل آية ٣٥ .

للتقوى ليس بسديد أيضا ولكن "ولعل"، واقعة في الآتية موقع المجاز لا الحقيقة لان الله عزوجل خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف وركب فيهم العقول والشهوات وازاح العلة في اقدارهم وتمكينهم وهداهم النجدين ووضع في ايديهم زمام الاختيار واراد منهم الخير والتقوى فهم في صورة المرجوسهم أن يتقوا ليترجح امرهم وهم مختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجى بين ان يفعل وان لا يفعل ومصادقه قوله عزوجل "ليبلوكم ايكم احسن عملا"، وانما يبلو و يختبر من تخفى عليه العواقب ولكن شبه بالاختيار بناء امرهم على الاختيار(١) ومن ذلك نرى كيف يذهب الزمخشري الى ان "ولعل"، منافية لمقام الالوهية ومن ثى حملها لمقام على المجاز. واذا كان الله لا يتدخل في ارادة الانسان وجعلها حرة ففعلت الفعل ان شرا او خيرا فما مدى سلطان الشيطان على الانسان؟ ان الشيطان ليس له سلطان على ارادة الانسان و انما هو يزين والانسان يختار لنفسه اما طريق الهداية او طريق الضلال. وقد وجد الزمخشري آية تعيينه على تقرير هذا المعنى وهى: "وقال الشيطان لما قضى الامران الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوسونى ولوسوا انفسكم ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم"، فاخذ يعتمد عليها فى تقرير رأيه وهذا دليل على ان الانسان هو الذى يختار الشقاوة والسعادة وتحصيلهما لنفسه و ليس من الله الا التمكين ولان الشيطان الا التزيين ولو كان الامر كما تزعم المجبرة لقال فلا تلوسونى ولا انفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وا جبركم عليه(٢).

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٧٨ سورة البقرة .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٧٧ سورة ابراهيم آية ٢٢ .

فأثبت ان العبد حرطليق في ارادته وافعاله وانه يتصرف كيفما يشاء وان الله اعطاه العقل والتمييز ليبين الخبيث من الطيب . وعندما يرى الزنخشرى ان ظاهر بعض الآيات يفيد خلاف ذلك يبذل اقصى ما عنده من المقدرة الادبية اوالبيانية ويجعلها دالة على عقيدته ولهذا تجده يقول في الآية الكريمة ”ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على ابصارهم غشاوة“، - لاختتم ولا تغشبة ثم على الحقيته . و انما هو من باب المجاز و يحتدل ان يكون من كلانوعيه وهما الاستعارة والتشيل . فان قلت : فلم اسند الختم الى الله تعالى واسناده اليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل اليه وهذا قبيح وصدور القبيح من الله محال . و يجيب الزنخشرى عن هذا باجوبة منها : أن الاسناد اليه تعالى كناية عن فرط تمكن هذه الصفة ورسوخها في قلوبهم واسماعهم فان كونها كذلك يستلزم كونها مخلوقة لله، صادرة عنه فذكر اللازم ليتل منه الى الملزوم . تراهم يقولون ان فلانا مجبول على كذا يقصدون بذلك رسوخ هذا المعنى فيه . ولما لم يكن ارادة الحقيقة في الاسناد الى الله مقصورة على مذهبه وجب ان يعده مجازا متفرعا من الكناية وبن ذلك نرى كيف يقرر الزنخشرى مذهبه الاعتزال في حرية وقدرة باجلى مظاهرها وكيف يؤول الآيات الدالة على خلاف ذلك.

— ٥ —

الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين .

وهما الاصلان الثالث والرابع من أصول المعتزله . وقد جمعنا هما معا للارتباط الشديد بينهما . وقول المعتزلة في ذلك مبني على تصورهم للايمان . وتصورهم للعقل الالهي كما شرحوه و على قولهم في ان العالم سائر لغرض يرسي

الى تحقيقه (١) فعند أكثر المعتزلة ان الايمان هو الاعتقاد بالله ورسوله والاترار باللسان والعمل بالاركان . وليس التصديق والاعتقاد القلبي هو وحده كافي حصول الايمان . يقول الزمخشري فى الآتية ”والذين يؤمنون بالغيب“ فالايان الصحيح ان يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله . فمن اخل بالاعتقاد وان شهد و عمل فهو منافق ومن اخل بالشهادة فهو كافر ومن اخل بالعمل فهو فاسق و يسير الزمخشري على تقسيم الذنوب الى صغائر و كبائر . وعنده ان الصغائر مالم يأت فيها وعيد . والكبائر ما جاء فيها وعيد ولا تستقط الكبيرة الا بالتوبة ويكرر هذا فى موضع آخر فيقول : الكبائر الذنوب التى لا يسقط عقابها الا بالتوبة والمعتزلة يرون انه يجب على الله ان يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة فصاحبها اذا سامت ولم يتب لا يجوز ان يعفو الله عنه لانه اوعد على الكبائر واخبره . فلولم يعاقب لزم الخلف فى وعيده فهذا هو معنى اصلهم الذى أطلقوا عليه الوعيد . يعنون بذلك ان الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصى قانون حتى التزم الله تعالى به (٢) .

وفى الآتية الكريمة ”يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين“ يقول الزمخشري : الفاسق فى الشريعة الخارج عن امر الله بارتكاب الكبيرة وهو النازل بين المنزلتين اى بين منزلة المؤمن والكافر وقالوا ان اول من حدله هذا الحد ابو حذيفة واصل بن عطاء (٣) .

ويقول الزمخشري فى موضع آخر : الناس اما مؤمن تقى واما مشرك وانما حدث

(١) ضحى الاسلام احمد امين ج ٣ ص ٦١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٠٧ سورة البقرة آية ٢٦ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٥ سورة الاسراء .

اصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك (١) .

— ٦ —

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هذا هو خاسر الاصول عند المعتزلة والمسلمون جميعا يسلمون به ويدل عليه قول الله تعالى "ولتكن سنكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر، (٢) .

وعندما نمعن النظر في اهم آثار الزمخشري في هذا المضمار اعنى تفسيره الكشاف. نرى كيف يعالج الموضوعات اللغوية في سهارة و صبر. مع التعمق ودقة التدليل في معرض تدليل البيان لتأييد رأيه و مذهبه الكلامي المعتزلي ودعم ذلك الاصول. واننا نرى كيف كان يطوع اللغة ويعبد لابتكار اسلوب فيه براعة اخاذة وبلاغة طيبة.

ولاجل ان يقرر عقيدة الاعتزال بان مراد الرب كمراد العبد منه مايقع ومنه ما يمتنع فيقول في الآية "ولعلكم تشكرون"، ان "لعل"، هنا بمعنى "الارادة اى"، "ارادة ان تشكروا"، (٣) وفي الآية "هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض"، (٤) دليل آخر على دقة الزمخشري في التماسه الوجوه النحوية التي يسخرها لتقرير الرأى الاعتزالي في مسألة حرية الارادة. يقول فان قلت: ما محل يرزقكم؟ قلت: يحتمل ان يكون له محل، اذا اوقعت صفة لخالق وان لا يكون له محل اذا رفعت محل من خالق باضمار يرزقكم واوقعت يرزقكم تفسيره او جعلته

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٥ سورة الاسراء .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٠٠ آية ٣ سورة الحديد .

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣١٦ سورة البقرة آية ٥٢ .

(٤) سورة الفاطر آية ٣ .



كلاماً مبتدأً بعد قوله : ”هل من خالق غير الله“، فان قلت هل فيه دليل على ان الخالق لا يطلق على غير الله تعالى : ؟ قلت : نعم . ان جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأً و هو الوجه الثالث من الواجه الثلاثة واساعلى الوجهين الآخرین وهما الوصف والتفسير فقد تقييد فيهما بالرزق من السماء والارض وخرج من الاطلاق فكيف يتشهد به على اختصاصه بالاطلاق والرزق من السماء والمطر و من الارض النبات (١) . فنرى كيف ترك الوجه الثالث الذى لا يتفق ومعتقده وجاء بالوجهين الآخرین اثباتاً وتقريباً لرأية بان هناك خالفاً غير الله وهو الانسان الذى يخلق افعاله .

هذه هي جملة الاصول الخمسة التي يذهب اليها الزمخشري المعتزلي ويحاول تقريرها وشرحها وتاويل الآيات لتكون مؤيدة لها في تفسيره ”الكشاف“، الذي يعد بحق موسوعة لمذهب الاعتزال . والله ولى التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) الكشاف ج ٢ ص ٥٧٠ .